الأنساق السوسيوثقافية في شعر أديب كمال الدين

Sociocultural Patterns in the Poetry of Adeeb Kamal Aldin

أ.د. **علي هاشم طلاب الزيرجاوي**: كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة المثنى، العراق
م.م. **نور رحيم حنيوي**: مديرية تربية المثنى، العراق

Prof. Dr. Ali Hashim Talab AlZireijawy: College of Education for the Humanities, Al-Muthanna University.

Email: ali14905@mu.edu.iq

A.T. Noor Rahim Hanew: Education Directorate, Al-Muthanna, Iraq.

Email: Nooraliaa4511@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v3i4.246

الملخص:

إن مفهوم الأنساق يفصح عن الأنظمة الثقافية للأفراد، فلكل مجتمع نظام خاصيحمل القيم والمبادئوالعادات والتقاليد، إذ يظهر في صورة جملة من السلوكيات الجماعيّة والثقافة الشفاهية وهذا الأمر جعل النظر إلى الأنظمة الاجتماعية الحاكمة للأفراد والجماعات بوصفها أنساقاً ثقافية، ويمكن أن نعد كثيراً من الأنساق هوية سوسيولوجيةومائزة ثقافية، وفي ضوء ذلك نجد الشاعر على الرغم من غربته عن الوطن واغترابه حمل خطابه انساقا مهيمنة منغرسة في المجتمع العراقي بل اقتربت من أن تكون هوية تمثلتبأنساق عدة منها الانتماء الجزئي والمركزي والحزن الذي شارك في جعله عراقيا بامتياز فضلاً عنالحرب والظلم واليأس والازدواجية النّي تحمل إيديولوجية لها جذور تاريخية.

الكلمات المفتاحية: السوسيوثقافية، الانتماء، اللاانتماء، الوطن، المدينة، الحزن.

Abstract:

The concept of systems reveals the cultural systems of individuals. Each society has a special system that carries values, principles, customs and traditions, as it appears in the form of a set of collective behaviors and oral culture. Sociological and cultural distinction, and in light of this, we find the poet, despite his alienation from the homeland and his alienation, his speech carried dominant patterns embedded in Iraqi society, but rather came close to being an identity represented by several patterns, including partial and central affiliation and sadness, which he participated in making him Iraqi par excellence, as well as war, injustice, despair and duplicity. Elney carries an ideology with historical roots.

Keywords: sociocultural, belonging, non-belonging, home, city, sadness.

المقدمة:

تعد الدراسات الثقافية التي تنتمي إلى النقد الحضاري وتعنى بالنشاط الإنساني الثقافي من أهم الظواهر الأدبية التي رافقت الحداثة في مجال الأدب و النقد؛ وذلك لاختلافها عن المناهج السياقية والحداثوية، إذ نجد النقد الثقافي قد أقام بناءً منهجيا جديدا يقوم على تحليل النصوص ودراستها في ضوء السياق الثقافي والاجتماعي والسياسي، فتدور بؤرة عمله المركزي حول مساءلة الثقافة وأنساقها المضمرة والظاهرة في ضوء قصدية الخطاب وإبداع المؤلف وجهد القارئ (المتلقي) في قراءة واستنطاق نصوصه، وهذا الأمر يتطلب قراءة ثقافية تقوم على معرفة دقيقة بثقافة الأنساق المدروسة التي تتوزع مابين الذات والمجتمع، وبطبيعة الحال فأن المجتمع والذات صنوان لا يفترقان أحدهما يأخذ من الآخر ويكمله في التأثر والتأثير، فثقافة الأفراد نسيج مجتمعي مهما كانت الأمور، مثلما للمجتمع القدرة على بيان أثره السوسيوثقافي على الأفراد، ولهذا عاش الشاعر أديب كمال الدين ذلك التأثر ولامسه، فحضر ذلك في هويته التي كانت خليطاً بين أنساق المجتمع العراقي والغربي وأنساقه المكتسبة.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

تتمثل مشكلة الدراسة في عرض الأنساق السوسيوثقافية في شعر أديب كمال الدين، ويمكن التعبير عن هذه المشكلة في التساؤل الرئيسي التالي:

كيف تمثلت السوسيوثقافية في شعر أديب كمال الدين؟

وينبثق عن السؤال السابق أسئلة فرعية على النحو التالي:

- ما سمات أو خصائص الهوية المجتمعية؟
- ما تمثلات الهوية المجتمعية؟
- كيف حضرت الهوية المجتمعية في مدونة الشاعر؟

منهج الدراسة:

قامت الدراسة على استعمال آليات الدرس الثقافي بوصفه ممارسة ثقافية يمكن بوساطتها قراءة والبحث في حيثياتها، إذ استطاع الدرس الثقافي من الوقوف على الظواهر السويوثقافية وما يرتبط بها في المجتمع، سواء أكان المجتمع الغربي أم العراقي على اختلاف صور الانتماء التي ظهرت في شعر الشاعر.

أهداف الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في البحث في الأنساق المجتمعية العراقية التي جسدها الشاعر بوصفها جزءا من أنساق مجتمعه وأنساقه، فبحثنا في الانتماء والحزن والازدواجية التي مثلت الفكر الجمعي للمجتمع العراقي وأثبتنا توفرها بشكل جمعي قبل أن تكون بشكل فردي.

هيكل الدراسة:

- الإطار المنهجي للدراسة.
- التمهيد: قراءة في المفهوم السوسيوثقافي
- المبحث الأول: الانتماء
- المبحث الثاني: الحزن نسقا ثقافيا عراقيا
- المبحث الثالث: ازدواجية الشخصية في المجتمع العراقي:

التمهيد: الهوية السوسيولوجية:

إنّ الهوية مفردة يراد بها الكيان والوجود الذي يحقق للفرد استقلاله في هذا الكون، بوصفه إنسانا معترفا به اجتماعيا في داخل منظومة إيديولوجية كبرى[1]، ولاسيما أنها تعدّ الصورة الفكرية التي تحرك العقل المجتمعي وتمثلاته الثقافية، وتكون منغرسة داخل الذوات التي نعي جزءاً ضئيلاً منها والغالب مخفي غير واضح لكنه يعمل بقوة وهو ما يعبّر عنه ثقافيا في بالمهيمنات الثقافية، ولذا نجدها تشكل نسقاً ثقافياً في الخطاب الأدبي لأن سؤال الهوية من أهم أسئلة النسق الثقافي وبالخصوص في مرحلة الحداثة وما بعدها، فتحولات كثيرة طالت البنى الاجتماعية التقليدية والأنساق الثقافية، والهوية لم تكن بمعزل عن ذلك بل نالت نصيباً وافراً، جعل التحديد يشوبه نوعا من الصعوبة والتعقيد، ولذا يحتاج "سؤال الهوية لنسق ما، يجب طرحه والجواب عليه من داخل النسق نفسه، وليس عبر مراقب خارجي، يجب أن يستخلص النسق قراره بذاته، فيما إذا كان قد تغير أثناء المسار التاريخي من خلال تغيُّر البنى إلى درجة أنه لم يعُد هو نفسه" [2]، وهذا الأمر بدوره يسلك بنا جادة الصواب في معرفة الهوية والتغيرات التي طرأت على القيم والأيديولوجيا، لأننا جميعا أعضاء مجموعة متنوعة من الجماعات ننتمي إليها جميعاً، فكل إنسان له مواطنة ومكان إقامة وأصل جغرافي ونوع جنسي ومهنة ووظيفة والتزامات اجتماعية، وهذه الأمور تجعلنا أعضاء في جماعات متنوعة وكل من هذه الجمعيات تمنحه هوية معينة ولا يمكن أن يؤخذ على أنها الهوية الوحيدة للمرء أو التصنيف

1عايش، شيماء نزار (2016): من بنيات المماثلة إلى أنماط المغايرة دراسة ثقافية لأنساق البداوة والحضارة في الشعر العربي، ط1، دمشق، ص 129.

2لومان، نيكلاس (2010): مدخل إلى نظرية الأنساق الثقافية: 24. مدخل إلى نظرية الأنساق، تحقيق: يوسف فهمي حجازي، ط1، المانيا: دار الجمل، ص 24.

الوحيد لعضويته في المجتمع[1]، إذ إن الذات كينونة إنسانية صغرى تتماهى مع ذات جمعية أكبر تتمثل بالهوية المجتمعية، فالإنسان أنما يبدأ بإدراك ذاته في ضمن مكون مجتمعي ذي ملامح ثقافية خاصة ومميزة ومنه يتزود بالنظام القيمي والثقافي العام وبهذا المعنى يصبح مفهوم (الأنا) نسبياً مثل سائر الصور الأخرى[2]، فالهوية كل ما يشخص الذات ويميزها وهي في الأساس تعني التفرد إنها السمة الجوهرية العامة لثقافة المجموعة.

وتصاعدت أهمية الهوية في العصور الحديثة لزيادة التجزئة التي أصابت البناء الاجتماعي وسياقاته الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية، لذا "مابرح سؤال الهوية الفردية والجمعية على سواء يزداد إلحاحاً وبروزا خلال العقد الأخير نتيجة التحولات الاجتماعية والثقافية المقترنة بالعولمة، بدا أن تكاثر التيارات الثقافية العابرة للقوميات (للناس والسلع ووسائل الإعلام) يعمل على خلخلة الهويات المستقرة الراسخة" [3]، فالهوية تجسد حاجة نفسية واجتماعية لا غنى عنها، تفصح عن المجال العاطفي والرمزيلنمو الذات وتفتحها وإثباتها، لأن " الكائن البشري يمكن تشبيهه بشجرة ليس بمقدوره أن ينمو ويعيش حياة عادية إن لم تكن له جذور ثقافية عميقة يتغذى منها روحيا ومعنويا ويستمد منها معاني حاضره ومستقبله" [4]، لذا تتمثل الهوية المجتمعية ب"الكيفية التي يُعرف الناس بها ذواتهم أو أمتهم وتتخذ اللغة والعرف والثقافة والدين... أشكالا فهي تنأى بطبعها عن الأحادي والصفاء، وتنحو منحى تعدديا تكامليا إذا أحسن تدبيرُها ومنحى صداميا إذا أُهملت وأُسيءَ فهمها تستطيع أن تكون عامل توحيد وتنمية، كما يمكن أن تتحول إلى عامل تفكيك وتمزيق للنسيج الاجتماعي الذي تؤسسه عادة اللغة الموحدة"[5]، وتذوب فيها الهوية الفردية في بعض المواقف المأساوية التي تمر بها الجماعات مثل الحروب والاضطهاد والخوف هو خوف الجماعة وموت أحد الأفراد يملي على كل شخص الإحساس بالألم[6]، وفي ضوء ذلك فالهوية مجموعة سمات أو خصائص تميز أو تطغى فيمجموعة معينة عن غيرها ولها عدة تمثلات:

1صن أماريتا (2008): الهوية والعنف ووهم المصير الحتمي، تحقيق: سحر توفيق، ط1، الكويت: عالم المعرفة، ص 20-21.

2إنكرام، وآخرون (2016): الدراسات الثقافية مدخل تطبيقي، ط1، دار بغداد، ص 316.

3بينيت طوني، وآخرون (2010): مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ص 703-704.

4مجموعة مؤلفين (2013): اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ط1، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص247-248.

5مجموعة مؤلفين، المصدر السابق، ص227.

6ميشكشيللي، أليكس (1993): الهوية، تحقيق: علي وطفة، ط1، دمشق: دار الوسيم، ص 107.

المبحث الأول: الانتماء:

إن الانتماء ظاهرة إنسانية تربط بين مجموعة من الناس المتقاربين والمحددين زمانا ومكانا بعلاقات تلازمية تشعرهم بوحدتهم وتمايزهم الذي يمنحهم حقوقا ويفرض عليهم واجباتوهو متطور بالإرادة الإنسانية الباحثة عن الأفضل [1]، وهذا ما جعله لا يشكل منظومة جاهزة ونهائية، إنما مشروع متشابك مع الواقع والخصوصية الثقافيةالتي تواجه الإنسان مهما حاول أن يتنصل منها[2]، لأنها تولد معه ولا خيار له في استمرارها كالانتماء العائلي والوطني واللغوي والعرقي والإقليمي وبعضها يكون له الخيار منها كالدين والمذهب وأخرى يتخيرها الإنسان بعد اكتمال وعيه وتوجه السياسي والإيديولوجي[3]، لذا نجده عند الذات يشكل صوراً عدة:

أ- الانتماء المركزي (الوطن)

تزخر المدونة الشعرية على مر العصور بارتباط الشاعر بموطنه الذي يجسد هويته وما ينتج عنه من الانفصال متمثلا بالمناجاة والحنين، ويبدأ باستعادة الذكريات بغض النظر عن كونها ايجابية أو سلبية، لذلك نجد حضوره مهيمنا، "ولو لم يكن للمكان حظوةعند الشاعر العربي لما وجدنا كثيرا من النصوص الشعرية القديمة تُفتتح بالوقوف على الأطلال... وما هذا الوقوف إلا إشارة واضحة للعلاقة القوية بين الشاعر العربي والمكان فهو لصيق به مهما غاب عنه أو أصابه تغيير أو انتقل إلى غيره يظل يختزله في ذاكرته ويتغنى به" [4]، وتمثل شدة الانتماء للمكان أو المدينة نسقا ثقافيا منذ القدم في الحياة العربية؛ لأسباب عدة منها الهرب من الجدب والقحط والقهر والغزو والنهب، أو طلبا للأمن والسكينة أو البحث عن الكلأ والماء، فالماضي لا يختلف عن الحاضر كثيرا [5]، ولاسيما أن الظروف القاسية والقاهرة تجعله يفكر بالرحيل عن وطنه أو عند شعوره بالعدمية، فيرتبط المكان بما يعانيه الشاعر من تمزق وذلك الأمر وليد الظروف الثقافية والاجتماعية والسيكولوجية الغربة والمنفى كان اضطرارا، إلا أن المدينة تحضر معه في خطاباته:

بعد أنْ لعبنا معاً
ورقصنا معاً
... وسفحنا دمنا الزكيّ معاً

1سليم، فاروق أحمد (1998): الانتماء في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص14.
2العبيكان، وآخرون (2006): فكر الانتماء فيزمن العولمة وقفات مع المفهومات والتطبيقات، ط1، الرياض، ص21.
3نادية وآخرون، دوائر الانتماء وتأصيل الهوية، ط1، القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم، ص9.
4رشيد، أمل محسن (2006): المكان في الشعر الأندلسي عصر الملوك والطوائف جامعة أم القرى، ص9.
5حور، محمد (2005): الهوية العربية في الشعر المعاصر من وهم الحقيقة... إلى حقيقة الوهم، ط1، سلسلة ثقافية تصدرها وزارة الثقافة، ص373.

وضعنا معاً
... قال لي الفرات
في لحظةِ صدقٍ عجيبة:
انجُ بنفسك!
ففائي أكذوبةٌ
ورائي محضُ خيال.[1]

إن دلالات الوطن التي تحمل حس الانتماء تنطلق من معاناة الشاعر وواقعه واستجابةلأحداثه، فيتحكم الواقعفي توجيه رؤيته وتشكيل خطاباته[2]، لذا نجد الفرات يشكل نسقا ثقافيا عند الشاعر يمر بمدينته يتغنى به كما يتغنى السياب ببويب في مدينة جيكور، واصفا به وطنه في ضوء تسمية الجزء بالكل، ولعل الأمر يعود إلى الافتخار بالماضي العريق والحضارة الخالدة، فالذات ووطنها ينوءان بمختلف العذابات، انطلاقا من الغربة النفسية داخل الوطن وصولا إلى الغربة المكانية في المنفى، ليفصح عن خوفه وقلقه من الموت وانعدام الحياة التي تبدد الهدوء والطمأنينة مصورا بشاعة المكان ووحشته وخواءه الذي جعله مضطراللمغادرة؛ لشعوره باليتم المكاني في ضوء الأنسنة الثقافية(للفرات) بفعل اللعب والرقص إلى مكان خاو، فيتأرجح المكان بين الأليفوالمعادي، فتارة يمثل مرتعاً للطفولة والسعادة و أخرى يمثل مكاناً تنطمس فيه معالم الحياة الإنسانية، بفعل القتل وسفك الدماء، متحولا إلى لغز يصعب الكشف عن مكنونه، وهذا الأمر جعلهم جازفا يبحث عن بدائل ثقافية تشعره بأمل وجود مكان آخر يحفل بالحياة بدلا من الهلاك المحتم، وبعد الصراع بينهما يكسر أفق المتلقي بتحول الفرات إلى رجل حكيم يعظهُ بمغادرة المكان الذي أصبح أكذوبة ومحض خيال، وهنا إشارة ثقافية إلى أن الوطن الذي سُلبت منه الحياة ما يزال صادقا و رحيما يشعر تجاهه بالمسؤولية ولا يريد أن يلحق به الضرر في ضوءردة فعل صريحة.

نجد الذات تمتلك الإصرار على عشق الوطن والانتماءإليه لما يحمله من وشائج وثيقة بالوجدان والنفس، إذيبدو من الصعب إحلال البديل مكانه، فالوطن انتماء وإرث وسمو وكرم:

النهرُ هنا يتجددُ قطرةً قطرة
ليس كالفراتِ الذي يدفعُ ماؤه الضفافَ دفعاً
...مَن يعيد إليَّ سمكَ الفرات؟

(1) المجموعة الشعرية الحرف والغراب: 17-18.

2 المسعودي، كريم: الوطن الدلالة والبناء في شعر السياب، ط1، دمشق: دار صفحات للنشر، ص79.

ومن يعيد إليَّ مركباً خشبياً وسط الفرات؟[1]

يهيمن الحنين على المكان بصورة جلية يجعل الشاعر يدخل في مقارنة بلده وانتمائه مع الآخر، بوصفهمدعاة للفخر بوطنه، وإن هذهالمقارنة نتاج الهوية التفاضلية بين الهويات المتقاربة ثقافياً أو مجتمعياً أو فردياً أو جماعياً[2]، فيفصح عن انعدام الأمل في العثور على هويته الشخصية في ثقافة أخرى ومكان آخر هاجر إليه بعد عجزه عن العثور على ذاته التي دفعت به للبحث عن مكان بديل، على الرغم من تفاعله مع تلك الثقافة وتمكنه منها والشعور بالطمأنينة والاستقرار، وهيمنة ذلك العالم الجديد الذي انتقل إليه، إلا أن وطنه حاضر في قرارة نفسهفي ضوء ملاحظة أوجه الاختلاف والتمايز في نمط الحياة التي اعتاد عليها، بفعل المشاهد الماضية والحاضرة فيتأمل مكانهفي الغربة الذي يكشف له أشياء خفية متمثلة بالسخاء والجود في بلدهو يفجر الحنينوالشوق الذي منحه سياحة فكرية ينفس فيها عن عشقه لوطنه.

وقد يخلق تحول المكان ظروفاً جديدةً لا تلاءم الشاعر مما جعله يشعر بالغربة التي لم تكن رغبة ذاتية منه، بل فُرضت عليه، وبذلك لا يملك أمامها حيلة، فالمكان في خياله علىرؤيتين الأولى تتجسد بشعوره بالغربة النفسية التي يعيشها داخل وطنه ناتجة عن عدم الاستقرار وفقدان الحياة السعيدة، والثانية ترتبط بالمكاني الآني وشعوره بالهلاك والعذابات والآلام التي لا تحتمل متمثلا بفقدان الهوية وشدة الانتماء في الوقت ذاته:

لكلِّ قصيدةٍ شمسٌ.
(هل تعرفُ ذلك؟)
ولكلِّ قصيدةٍ منفى.
(هل تُصدّقُ ما أقول؟)
لذا دمدمْ قصيدةَ المنفى
وأنتَ في الوطن.
ودمدمْ قصيدةَ الوطن
وأنتَ في قطارِ الجنّةِ الذاهبِ إلى جَهنّم.[3]

يبرز الخطاب النسق المكاني المرتبط بالحزن والألم، إذ قص حدث الرحيل إلى المجهول، ليشكل واقعة ثقافية أفرزتها المعطيات المتمثلة بالشمس التي ترمز إلى الحياة والنور الذي يبدد الظلام،

(1) المجموعة الشعرية أقول الحرف وأعني أصابعي: 74.
2ميشكشيللي، أليكس، مصدر سابق، ص122.
(3) المجموعة الشعرية في مرآة الحرف: 42.

ولاسيما أن دلالتها الثقافية في العصور القديمةتحمل نسق الإله والعدالة والقضاء بالحق، ولا نرى هذه الصفة بعيدة عن صفة الشمس في الطبيعة من خلال كشف الحقائق وإزالة الغموض الذي يكتنف وجودها في الظلمة، فكما تنير الشمس للبصر الطريق الصحيح كذلك هي تنير البصيرة وترشدها إلى الصواب، وبرهان ذلك هو أن الشر يرتكب عادة في الظلمة، والشمس تفضح الأشرار وأعمالهم بنورها[1]، وإن غيابها في وطنه يجعله يعيش الضياع، باحثاً عن موطئقدم ليحط رحاله، إلا أنه في الوقت نفسه "بدأ رحلة التيه الحقيقية التي لا أمل في العودة منها... وانقلبت معايير المنفى والوطن وتصدعت حيث تبادلا الأدوار في عملية انقلاب ناعمة ومخادعة"[2]، وبذا نجد التورية الثقافية في وصفه للهجرة بالقطار الذي يعد " رمزاً للإنسانالعربي (الواعي) الذي لا يملك سبيلاً إلى الفرار من واقع وطنٍ لا يسعفه إلا بتداعيات القمع والقهر أو بإسقاط ذكريات العجز والفقر والهزائم والتهالك والتردي"[3]، فيبحث عن جنة يبتغيها لكنه لم يصل إليها بل وصل إلى جهنم الغربة والفراق، افتقد ما في داخله وشعر بخيبة أمل كبيرة، فمثل الوطن المتنفس الوحيد والبهجة والسرور، وهذا الأمر يفصح عن تعلق حميمي بين الشاعر والمكان السابق، بسبب مغادرة الأحبة والخلان والذكريات، على الرغم من وصف الرحيل منه بطريق الجنة، إلا أن الإيحاء يصرحبأنه مسكون به، فالمغادرة التي تمثل سفر الانعتاق أوصلت الذات إلى جهنم، وبهذا يشكل الشاعر يشكل فرادة أسلوبية تحمل إشارة ثقافية تدل على الأماكن المجهولة التي تشير إلى عظمة المأساة من جهة، والشعور بالانتماء الشديد إلى الوطن من جهة أخرى، نتيجة فقدان الأمان والشعور بالاغتراب والوحشة وعبثية الحياة، فأفصح عن أسباب التشرد والرفض والإقصاء التي اضطر فيها إلى اللجوء إلى المنفى، وتحمل معاناةالهجرةوهاجس الخوف من المجهول وصراع المهاجر مع نفسه ومكانه، وانكسار الذات التي نجدها مضطربة تارة تصف مكان المنفى بالسعادة والهدوء والطمأنينة، وأخرىتصف بشاعة المكان ووحشته ورعبه، وذلك يعود إلى أن الغربة التي خلقت عند الذات نسقا ثقافيا ذا بعدين مختلفين الأول الانتماءإلى الحاضر بفعله الوجودي المختلف، والثاني الماضي وما يحمل من ذكريات المدن وطفولة الذات، لذا أصبحت عملية البحث عن الجنة وهما كبيرا راوده لسنين عدة، ومن ثم غادره بفعل معاناته الجديدة التي تصف السعادة في المنفى بالخدعة والمأزق الذي لا يمت للحقيقة بصلة، والوطن يجسد الحياة على الرغم من الظروف كلها، فلا يمكن الانفصال عنه فيعيش معه في حالة انفصال واتصال.

1سلمان، وآخرون (2004): الشمس في الشعر الجاهلي، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية، ص20-21.
2أدونيس وآخرون (2012): الكتابة والمنفى، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص119.
3مغنية، حبيب يوسف (2010): في الأدب الحديث والثقافة، ط1، بيروت: دار الهلال، ص138-139.

ويتحدى الشاعر المكان الذي انتقل إليه بوساطة خلق ممكنات نسقية تكشف عن آمال الشاعر في انبجاس الحياة وقيام مجتمعمستقر في وطنه الذي ظل يراوده في خطابات عدة أشبه ما يكون بحبل يشده إلى الأرض، فنجده يلجأ إلى التشبيه بقوله:

بعدَ سنين من كتابةِ نَصّي هذا
قُتِلتُ قربَ نهرٍ ميّت
في آخر قاراتِ العالم[1].

تجعل الذات بؤرة التركيز كامنة في النسق المكاني الذي يحدد هويتها، فنجد معطيات الخطاب الثقافية تشير إلى شعوره بعملية الطمس الإنسانيوالرتابة والسكون والإحساس بالجدب الذي نبع عن القطيعة بينه وبين وطنه؛ لفقدان الهوية المرتبط بتحول الفضاء المكاني والثقافي الذي جعل النهر مجردا من كل حيثيات الحياة والعطاء والخصب، إذ إن الكناية الثقافية في موت النهر تصور لنا منظراً غريباً ينقل لنا قبح المكان(المنفى) وانفصاله بتأثير الحزن والغربة، وهذا ما جعل سلطته المتمثلة بالوطن والانتماء تشكل نسقا مهيمنا (لا شعوريا) جمعيّا؛ لأن الشاعر يرتبط مع المكان بعلاقة تماهٍ وانسجام لا تنفك عن ذكره، وهذا الصراع نتج عن ارتباط المكان "بذكريات الإنسان وحياته مع الصحب والأهل، إذ تصبح العلاقة بين الإنسان والمكان وفق ذلك علاقة روحية فهو الذي يعمق الانتماء والحب وحلم الفرد مع الجماعة فلا يبقى مكان أحادي التجربة بل يصبح عامل ربط بين بني الإنسان"[2]، فالبعد عن الوطن جعله يشعر بحالة من القتل والعدميةبسبب انتفاء الحياة؛ لأن فقدان الهوية جعل النهر يفقد هويته بوصفه منبعا للماء مثلما تحولت الذات إلى جثة تقترب مما آلت إليه الأمور مع النهر، وقد يكون سبب ذلك انعكاس دواخل النفس التي جعلت الذاتفاقدة للجمال الخارجي للحياة والمكان الذي يُضفي على الواقع صبغة رمادية فيتحول الحضور الإنساني في المنفى إلى غياب مطلق.

ونلحظ تأثير المنفى في الذاتبشكل كبير جعلهاتبحث فيه عن إقامة عملية تواصل مع الحياة لتنتهي جدلية الانقطاعولو بدرجة معينة، ولتخفف من شدة الاحتدام بينها وبين المكان، وذلك يعود لكون المنفي يحيا حياةً وسطاً ليس وحيدا تماما مع البيئة الجديدة ولا هو تخلص بالكامل من القديمة، فهو محاصر بنصف ارتباط ونصف انفصال، مشتاق إلى الماضي وعاطفي من جهة ومقلد بارع ومنبوذ غامض من جهة أخرى، فتصبحبراعة البقاء المطلب الرئيس، ومعها الرخاء والأمان خطرا يجب

(1) الاعمال الشعرية الكاملة: مج 2: 268.

2المرازيق، أحمد جمال (2009): جماليات النقد الثقافي نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص80.

الاحتراس منه باستمرار[1]، مما يعني أن الذات تحاول أن تحيا بهذا الفقد المكاني والضياع فتبحث عن وسائل لإعادة الطمأنينة إلى النفس:

في المنفى ليسَ هناك مِن مرآةٍ لترى نَفْسَك
ولذا صارَ الشاعرُ يَتَمرآى في حرفه ليلَ نهار.[2]

تشكل الحروف وسيلة لتبديد الغربة الثقافية التي فتكت بالشاعر وأصبح المكان غير أليف وموحشاً على الرغم من جماله وطبيعته، وفي المقابل يصنعمن الحرف ممكنات ثقافية تنطلق من الغربة المكانية والروحية والضعف والاضطراب والتوتر وتصدع العلاقة الإنسانية إلى القوة، متكئاً على الحرف بوصفه نبضا حيا لقلبه من الضياع، يصنع به فضاء رحباً يحفظ ذاكرة الإنسان وعمقه الثقافي والحضاري، ولذا يتحدى الشاعر بثقافته سلب المكان الآني على الرغم من أن المجتمعات الأولى التي نظمت نفسها على شكل مواقعمنفردة وبيئات مختلفة، مع انفتاح الثقافة في الوقت الحاضر الذي جعل المكان يجسد قيماً وإيديولوجياتوحاجات كل مجتمع بصورة متكاملة تختلف عما سبق[3]، فالشاعر ما يزال مسكونا بغربة الهوية المكانية بفعل التحول الذي خلق ظروفاً جديدة لا تلاءم الشاعر وثقافته، فيصرح بانعدام وجود مرآة في الغربة ومن ثم الوطن يحمل انعكاسا لهوية الذات وفكرها، وعدَّ الحرف وسيلة تبقي أبواب الأمل مشرعة بوساطة الخطابات التي تعد أسيرةالماضي، وهذا الأمر يفصح عن ارتباطها بالوطن الذي يرافقه ويقاوم به الغربة المفروضة وأصبح ذكره يرمم الذات، بل يقترب من حال النهر الذي يروي الزرع ويبث فيه الحياة، على الرغم من الصراعالمستمر بين المنفى والوطن، إلا أنه يوحي بعدم الانفلات من قبضة نسق الهوية التي يحملها المكان المتمثل ب(الوطن)وهيمنته متجاهلا المعاناة والظروف التي عاشها، فالانتماء يشكل هوية للذات لا يمكن تجاوزها في خطابات كثيرة، لان المكان والثقافة والتقاليد والقيم تجعل أبناء الوطن مرآة بعضهم لبعض، مما شكل ردة فعل تمثل المتنفس الذي يبث فيه آلامه وحنينه إلى الماضي، نتيجة لعدم شعورهبالانسجام والاستقرار، وتضافرت العوامل الثقافية والسيكولوجية في حس وطني عميق وأصيل في الوجدان البشري تحمل الهوية والانتماء في داخلها.[4]

1سعيد، إدوارد (2003): الإلهة التي تفشل دائما، تحقيق: حسام الدين خضور، التكوين للطباعة للنشر،ص60.
(2) المجموعة الشعرية حرف من الماء: 107.
3 إنكرام، مصدر سابق، ص55.
(4) الأعمال الشعرية الكاملة: أديب كمال الدين: مج2: 67.

ب- الانتماء الجزئي (المدينة)

إن الاحتفاء الشعري بالمدينة أو القرية لم يكن موضوعاً معاصراً، بل نجده نسقا ضارباً في القدم شغل مساحة كبيرة من النتاج الشعري [1]، فامتاز الشعر العراقي في إبراز ملامح المدينةبوصفها إحدى تمثلات الهوية الثقافية، لأنها تضفي على سكانها هوية خاصة بها في القيم والعادات والسلوكيات[2]، ولا غرابة أن نجد " المدينة لها النصيب الأوفر في الرصد والتسجيل" [3]، لأن المكان والبيئة التي يعيش فيها الفرد تساهم في تشكيل هويته:

بحثتُ عن طفولتي في أغنيةٍ قديمة.
بحثتُ عنها في نخيلِ بابل والعراق
وسألتُ عنها ليلَ الحلّة
فلم أجدها إلّافي كفِّ طفلٍ شحّاذ
يجلسُ قربَ الجسر العتيق
ويمدُّ يديه للعابرين الساهمين،
يضحكُ تارةً، يبكي أو ينام.[4]

احتل المكان جزءاً كبيراً من الدراسات الثقافية مشكلا نسقا ثقافيا منذ العصر الجاهلي والوقوف على الأطلال حتى عصرنا الحالي، ولا غرابة من ذلك مادام يثير في دواخل الأفراد بصورة عامةمشاعر الانتماءوحب الاندماج في المجموعوالشعراء خاصة، لأنهم يتصورن أعمالهم نوعاً من التمثّل لأحلام الأمة [5]، لذا نلحظ الخطابيبدأ بحس الحنين والشعور بالتلازم والترابط، وفي ضوء ذلك نجد عملية البحث تنطلق من البنية المجتمعية الكبرى (العراق) إلى البنية الصغرى (بابل) لتؤكد انتماء الذاتإلى المدينة التي تمثل جزءاً من الذات لا تستطيع الانعتاق منها، فيبحث فيها عن طفولته وما يصاحبها من ذكريات و معاناة، فيرسم صورة الشحاذ الذي يفترش الجسر ويرفع يديه للمارة، نتيجة انعدام الوشائج الإنسانية أو الاجتماعية السليمة، وهذا الأمر جعل المدينة تقترن في ثقافة

1 علي، مختار (1995): المدينة في الشعر العربي المعاصر، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص6.

2 البخاتي، حكمت (2013): التشيع في الكوفة النشأة والهوية والتحول وأثر واقعة الطف، مج دراسات إسلامية معاصرة، ع:8، ص397.

3 التميمي، وآخرون (2010): تحولات المدينة في الشعر العراقي الحديث، ط1، دمشق: دار الرائي للترجمة والنشر، ص329.

(4) الاعمال الشعرية الكاملة: أديب كمال الدين: مج2: 67.

5 المرازيق، مصدر سابق، ص69.

الشاعر بالفقر والقساوة ف " ترشح شعورا حادا بالإحباط واستشعار الذل"[1]، على نفسية الذات التي تعيش صراعات ثقافية وطبقية مع الآخر المتمثل بالمكان وتحدي الإنسان وهزيمة أحدهما أمام الآخر، فيستمد منه مادته بإيقاع شجي وتقريري فجّر ذكريات الشاعر، وعلى الرغم من الحرمان والألم الذي عاشه، فأن الابتعاد أشبه بحمى مستعمرة في داخل الذات ساعدت على خلق هذا النسق، فنرى الحنين والأسى ظاهرا في الخطاب على الرغم من انثيالاته الإنسانية، ونجده في حين آخر يستحضره بصورة تحمل حس الفخر:

ربعُ فرات
نصفُ إله،
ثلاثةُ أرباع أسطورة؛
تلكَ بابل التي بلبلت التاريخ.[2]

يسلط الشاعر الضوء على الجانب الحضاري عبر خطابات عدة في ذكر مدينته وما تحمله من تراث ثقافي، فنجده يلج في الدخول إلى تاريخها وارتباطه بالأساطير التي " تجيبنا على السؤال: من نكون؟ ومن أين أتينا وأين موقعنا في الكون" [3]، فضلا عن قدسيتها التي أشارت إليها التورية الثقافية (ربع إله) التي تفصح عن كونها جزءاً من مقدساتها، وعلى وفق ذلكفالمدينة انتماء وتاريخ وأسطورة تتغنى بها الذات محاولة فيها تعميق الانتماء وتجديده:

أعطني،
أيّها الحرف،
...نقطةَ باءِ بابل
وسأعطيكَ طابعَ رأسِ كلكامش.[4]

يبوح تكرار المدينةبتمسك الشاعر بالمكان الذي تربطه به علاقة وجودية يتحقق معها معنى الحياة، فيحمل الخطاب تصويراللانفعالاتوالمشاعر الذاتية والموضوعيةبإزاء مشهد المدينة الذي يكشف عن فاعليتها في ماضي الشاعر وحاضره على السواء، بوصفها " رمزا لتلك الحضارة "[5]، ولاسيما

1المسعودي، مصدر سابق، ص

(2) المجموعة الشعرية في مرآة الحرف: 102— 103.

3 شرار، رائد حاكم (2017): الهوية في شعر الجيل التسعينيات لعراقي، جامعة بابل كلية التربيةللعلوم الإنسانية، ص94.

(4) المجموعة الشعرية الحرف والغراب: 32.

5 عباس، إحسان (1990): اتجاهات الشعر العربي المعاصر، الكويت: عالم المعرفة، ص90.؛ إسماعيل، عز الدين (1966): الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره، ط 3، دار الفكر العربي، ص352، 372.

أنها تحمل هوية ووعاء لا يتغير وإنما تتغير مؤسساتها السياسية في ضوء العلاقة بينهما وبين الشاعر، فنجدالزمن النفسي يظهر بقوة الوجهالثقافي للمدينة، فيما يثير الزمن الآني حفيظة الشاعر ويحولها إلى نسق فكري أيديولوجي، بفعل توظيف رؤى الشاعر التي تفترض عملية تبادلية مع الحرف.

المبحث الثاني: الحزن نسقا ثقافيا عراقيا:

أصبحت نغمةالحزن نسقاً متعارفاً عليه ومحوراً أساسيا في معظم ما يكتبه الشعراء في الصحف والمجلات والندوات، واستفاضت حتى أثارت كثيراً من المناقشات والجدل، إلا أنها تحملأبعاداً عدةفي شعرنا المعاصر تدور حول موقف الذات الواعيةالنامية من الكون والمجتمع، ولاسيما أنها أضافت إلى التجربة الشعرية آفاقا جديدة زادتها ثراءً وخصباً وولدت طاقات تعبيرية لها أصالتها وقيمتها [1]، لذا فإن الفصل بين مشروع الحداثة الشعرية وموضوع الحزن والمأساة عمل باطل لا يمت للحقيقة بصلة ولا الشواهد التي بين أيدينا، فقد بدأ مشوار الحداثة بقصيدة الكوليرا لنازك الملائكة التي نذرت نفسها للكشف عن مواطن البؤس والوباء والموت بنغمة رومانسية حزينة، فضلا عن السياب والبياتي في حديثهما عن الهزيمة الروحية والحضارية [2]، وهذا لا يعني أنها تقتصر على شاعر بعينه بل عدت سمة ملازمة لأغلب نتاجات الشعر الحديث وليس وقفا على شاعر ما، لكن حضورها عند الشعراء كان بنسب متفاوتة وطرق شتى بحسب ثقافة كل منهم وبيئته وظروفه، إلا أننا نجدها شكلت "ظاهرة بارزة تصدى لها النقد الأكاديمي العربي وهو يقوّم الشعر العراقي"[3]وهذا الأمر يعود إلى شيوع الإحباط والخيبة والسوداوية والأسى وفقدان الأمل وانتشار الظلم والفساد [4]، ولاسيما أننا نجد الدكتور علي الوردي يؤكد أن أيقونة الشكوى والتألم لم تفارق الفرد العراقي بل اقتربت من أن تكون علامة فارقة تميزه عن المجتمعات الأخرى[5]، وذلك بسبب قوة حضورها الذيجعلها تطغى على أغلب الحياة الاجتماعية بصورة عامة والشعر خاصة [6]؛ لأسباب موضوعية عدة منهاالسياسية المتمثلة بالحروب

1إسماعيل، عز الدين، مصدر سابق، ص352، 372.

2العاني، وآخرون (2005): المعذب في الشعر العراقي الحديث: 1958– 2000، جامعة بغداد، ص23.

3محمود، عباس ثابت (2010): الشعر العراقي الحديث 1945–1980 في معايير النقد الأكاديمي العربي، العراق، ص202.

4التميمي، وآخرون (2010): تحولات المدينة في الشعر العراقي الحديث، ط1، دمشق: دار الرائي للترجمة والنشر، ص134–151.

5الوردي، علي حسين (2001): شخصية الفرد العراقي بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع، ط2، لندن: منشورات دار ليلى، ص51.

6الجزائري، محمد (1974): ويكون التجاوز دراسات نقدية معاصرة في الشعر العراقي الحديث، منشورات وزارة الأعلام الجمهورية العراقية، ص190، 193، 210، 245، 250، 256، 438.

والثورات التي ولدت تاريخا دمويا واستمرار الطغاة بممارسة القمع والقتل، ومنها الاجتماعية في ضوء الحرمان، فالتكرار والاجترار بطريقة ما يمثل ملمحا ثقافيا من ملامح الهوية ومائزة تمثلت في أساليب اتسمتبخصوصية العبارة والصور والمعاني التي ترتبط بحوادث مأساوية، وهذه الصورة الثابتة للحزن جعلت للشاعر العراقي القدح المعلى بين أقرانه، منتجا هوية وسمة يتميز فيها أغلب الشعراء العراقيين التي تتلاشى عند بعضهم في الغربة وقد يبقى آخرون محافظين على هذه الصفة بوصفها هوية مجتمعية، ونحاول رصد أهم العوامل التي ساعدت على تشكلها:

أ- الحرب

يتداخل الحزن مع الفرحفي تشكيل ملامح الخطاب وهويته التي تعلن عن الشكوى والمرارة، فالحزن إحساس يساهم في توليد سلوك يؤثر في خصوصية وتنميط الشعر وترجمته:

إلهي،
خرجتُ من الحربِ منتصراً،
حرب الطغاةِ والأوغادِ والأعداء.
خرجتُ منتصراً
أجرُّ جثّتي بيدي في الطرقات
ليلَ نهار![1]

نلحظ أن نسقية الخطاب تجعل الانتصار يتساوى مع الهزيمة على الرغم من تكرر دلالة الانتصار، لغرض دفع النفس إلى مواصلة الذهن على التقبل؛ وهذا الأمر يبوح بصعوبة تحقيقه في ضوء طريقة الخروج التي يسبقها ممرات ضيقة متمثلة بالغدر والعداوة والتناقضات البشرية، فحزن الشاعر لا يحبذ الركون إلى الاستسلام وإنما يدعو إلى التجاوز والمغامرةوغض النظر عن الانكسارات المختلفة والهزائم المتلاحقة لمجتمعه وما يتسم به الواقع من عنف [2]، وهذه المواجهة بحد ذاتهاتشكل نصرا للذات، إلا أنه مفرغ من محتواه يطغيفيه حس الحزنالذي يجسده الخروج الخالي من الحياة والفاقد للقوة والنشاط، إذ شكل نظاما نسقيا بفعل حضوره الفاعل الذي يتداخل مع أشياء تبعث البهجة والسرور، وبذا لا يمكن الخلاص من هيمنته، بل عدَّ علامة من علامات الإبداع والبراعة والغواية التي تستهوي الشعراء تبعا لواقعهم المعيش الذي جعل من الحزن هاجساً لا يغيب عن مخيلتهم ووعيهم الثقافي، ليفصح عن العتمة النفسية للأنا وإحساسها المؤلم بالحروب واستمراريتها، فنجده يفجر

(1) المجموعة الشعرية إشارات الألف: 60.

2 العاني وآخرون، مصدر سابق، ص 21.

المشاعر، فتنبثق منه عاطفة صادقة تجنح لتصوير الجوانب الأكثر إيلاما التي تؤجج الحزن فتتواشج فيها معاني الأسى والتذمر وإحساساتهما:

حبيبتي: نخلةٌ باسقة
مليئةٌ بالتمرِ والحلمِ وأعشاشِ الحمام.
عليَّ أنْ أجدَ طريقاً لصعودها
أنا المُعوقَّ الذي قطعت الشظايا إحدى قدميه.(1)

يبعث نسق الحب السكينة والسرور والبهجة ويشغل النفس محاولا رسم عالم خاص يبتعد فيه عن منغصات الحياة، إلا أنه سرعان ما يكتشف عدميته المطلقة وخواء محتواه، بل أصبح عاملا مضاعفا ينبجس منه الحزن؛ لأن الشاعر بطبيعته يقيم علاقة وطيدة بين بيئته وواقعه وبين ظروفه الخاصة، فيصور لنا طغيان الواقع المرير، فنلحظ الحب الذي يعد أسمىما في الوجودلما يبعث الهيام والسعادةيكسر الشاعر به أفق المتلقي؛ نتيجة العوق الذي خلفته الحروب وأصبح سبباً لصدود المرأة وإعراضها، فالحزن يفرض حضوره الشامل في تمفصلات الحياة كلها ليحول خصبها جدباً فيحول بين الشاعر ورغباته.

ب-اليأس

نلحظ اليأس يشكل فضاءً رحبا في حمل الأنساق الثقافية التي تكشف للمتلقي الحزن وسلطته التي يمثلها الشاعر نفسه، وفي ضوء ذلك نجد الخطاب يحمل المفارقة الثقافية التي تدهش المتلقي وتكسر افق توقعه بفعل التنافر الماثلبين الخبر والمخبر منه:

لا معنى لأحزاننا

لأنَّ الموت هو الفرح الوحيد الذي ينتظرنا

كما تنتظرُ الشمسُ الأنهار

لتشرق فيها.(2)

يشكل الخطاب صدمة للمتلقي في الوهلة الأولى لأنه يخالف العرف والثقافة السائدة، وهذا الأمر يفصح عن التمخضات التي تعيشها الذات وجعلتها تضفي على الموت طابع الفرحوالسرور بوصفه شيئاً مادياً محسوساًيمزج بين المتنافرات على الرغم من عدم وجود علاقة بين الدال والمدلول،

(1) الاعمال الشعرية الكاملة: أديب كمال الدين: مج2:11
(2) الاعمال الشعرية الكاملة: أديب كمال الدين: مج1: 61.

لكي تكون الصورة متسقةمن ناحية الدلالة والإلهام، إذ يفاجئ المتلقي بإمكانية تغير الأنساق الثقافية بفعل الخرق العرفي واللغوي الثقافي، و الانزياح الذي ينبثقمنه اليأس والزفرات والخلجات التي تهيمن على خطابات الشاعر، لشدة وطأة الظروف التي يمر بها، فضلا عن شدة الحزن الذي جسد نأيه عن الحياة وإدباره عن المتع الحسية وإقباله على الموت، الذي شكل وسيلة للخلاص من الواقعالمعيش الذي يتجرع مآسيه ويغتال أحلامه، وجعل الموت حالة من حالات الحياة، على الرغم من أنه عالم غامض نظر إليه الشعراء" نظرة حيرة وقلق وشك وضرب من المجهول وكان الشاعر يشعر بأنه يقف بمفرده إزاء العالم وليس لديه سلاح وزاد سوى قصيدته يبحث عن الحقيقة، فيجد لها وجوهومسالك عدة وهذا ما يزيد قلقه وحيرته" [1]، إلا أن الشاعر استساغه وخلق منه حياة يسودها الفرح بوساطةالممكنات الثقافية للشمس والنهر، ويبلغ الحزن ذروته بوصفه نسقا تتلاشى فيه الأحلام:

جيمُ الجُثّةِ والجُوعِ والجلجلة
غريبةٌ على الواقع، عصيةٌ على التصديق.
ومعَ ذلك، فنحنُ هنا، للحديثِ عن السين:
سين سلامِ الموتى
سين سقوطِ الأسنان
...ونحنُ هنا للحديثِ عن القصيدة
التي لم يكتبها الشاعر
بسبب السأمِ وجلجلةِ الجيمِ وصليلِ الأسئلة
...لا توجد غير لا ولا ولا.
والجيمُ تنمو، تتوزّعُ في الشوارع
والوجوهِ التي أدمنت اللاأمل.[2]

تجلّت موضوعة اليأس بوضوح عند الشاعر وهيمنت على منجزه الشعري، فأصبحت صدى لهمومه ومعاناته الوجدانية التيتنم عن قلق وحزنيعكس تبرمه من الواقع المرير للحكام[3]، ولعل ذلك يعود للظروف السياسية والاجتماعية والثقافية لعصر الأديب التي جعلت الجانب الإيجابي للحياة معطلا والأمل غائبا، نتيجة الفقر والحروب والموت والانهيار، مقابل السلام المفقود في أغلب مفاصل الحياة، لذا نجد هيمنة الفاعلية النسقية في الرفض والنفي للخطاب بفعل التكرار، وهذه الرؤية لم تكن فردية، لأن المجتمع له دور في تكوين الأثر الأدبي، فالنفي والحرمان والقتل الذي يتكرر بأداة النفي

1مهدي، سامي (1994): الموجه الصاخبة شعر الستينات في العراق، العراق: دار الشؤون الثقافية، ص355.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة: أديب كمال الدين: مج2: 87.
3ملكة، وآخرون، ثنائية اليأس والأمل في شعر المتنبي، جامعة الكوفة، كلية التربية، ص233.

(لا) لم يختص بفئة معينة، بل طال البنية المجتمعية قاطبة، إذ يصنع الخطاب عملية تطابق بين المؤلف والجمهور المخاطب، وهذا الأمر يساهم في جعله سمة تميز الشاعر ومجتمعه.

ت– الظلم

إن الظلم يخضع للثقافة المؤسساتية التي تمارس الإقصاء بحق المجتمع عامة، وليس ذلك بالأمر الجديدوقد ارتبط بالحداثة والعولمة، بل يشكل نسقا ثقافيا موغلاً بالقدم، إذ كان من أهم البواعث التي شاركت في تشكيل الحزن في ضوء سلب الحقوق وتجريد المجتمع من مقدراته، وتفشي ذلك يعود لأسباب منها الواقع المعيش والظروف التي عاشها الشعراء وهجرة بعضهم إلى موطن آخر وظلم السلطات وتهميش المثقف، وعليه لا يمكن أن ننظر للحزن بوصفه ظاهرة ذاتية تولدت نتيجة حدث طارئ أو ظرف خاص إنماهو نسق ملازم ومهيمنومنغرس في الجذور العميقة تاريخيا، وهذا الأمر جعله يشكل هوية للمجتمع العربي بصورة عامة والمجتمع العراقي بصورة خاصة، وأثْرَتْ النصوص الشعرية هذا الجانب تبعا للظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية:

مللتُ من البكاءِ والصمت،
من الدمعِ والدمعِ الذي تحجّر
من الذين عبروا البرزخ
وباعوا ثيابنا،
ومن الذين أحاطوا بنا
وسرقوا حروفنا
في ابتهاجٍ عظيم.[1]

يعلوا في الخطاب صوت (الجماعة) الذي يكشف عن الكوامن المضمرةللثقافة النسقيةالتي تقف خلف الحزن بوصفه هوية مجتمعية، فنجد ظلم السلطة أحد العوامل التي تثير التذمر لما يملك من حصانة، تجعله لا يقبل المساءلة والخروج عليه، في ضوء دلالة (عبور البرزخ) التي تفصح عن تجاوز الحواجز والحدود، إذ " تلعب الأحداث السياسية دوراً بارزاً ومهماً في حياة العراقي لأنها الوجه الرئيس للنشاط الفكري والثقافي والاجتماعي" [2]، فتنبثق منها رؤية الذات وتشكلها على وفق نضج ثقافييكشف عنزيف السلطة و حالة الاستلاب التي جعلت المجتمع يعاني من الجوع والعري، فتضافرت دلالات الظلم في تعميق الإحساس بالحزن الحاد:

جلس البريءُ خلفَ القضبان

(1) الأعمال الشعرية الكاملة: أديب كمال الدين: مج2: 143.

2عائشة، بن كرامة (2015): ظاهرة الحزن في شعر بدر شاكر السياب، مجلة الجزائر، ج3، ع7، ص100.

فرأى القضاةَ والمحامين والجمهور
يتبادلون النكاتِ عن الزحامِ وأحوالِ الطقس،
ويعلكون الكلماتِ الفضفاضةِ عن العدالة،
ويضحكون مِن حظّه الأسوَد حدّ اللعنة.[1]

يفصح الخطاب عن طبقة ثقافية لها مكانة سامية في بناء المجتمعوازدهاره، إلا أنها صورة لواقع يعج بالفساد ولا يجيد سوى الظلم والتسلطومصادرة الحرية، فتثور الذات ثورة المغلوب على أمرها، فلن تستطيعأن تُبطل هذه الأنظمة على الرغم من زيفها، فتعلن الاستسلام الذي يشكل أعنف صرخة توجه إلى منطق الوجود [2]، فالشاعر لم يقصر الحزن على أشيائها الشخصية، وإنما نجدهيعيش معاناة الآخرين في مختلف القضايا الاجتماعية، ويحزن لما يصيب وطنه مجسدا ذلك في قوالب أدبية تطغى على أغلب خطاباته نبرة الحزن بوصفها سمة بارزة، في ضوء قبيحات العدالة التي لم تعد تحتفظ بقيمها بوصفها منظومة تحمل صوت الحق، وهذا الأمر يكشف الخطاب عن أنساقه المخاتلة بأسلوب جديد، فهي تدور حول تفشي الظلم انطلاقا من مؤسسة العدالةالتي جعلت كبح جماحه أمراً غاية في التعقيد، لذا نجده يتغلغل في مفاصل الحياة الأخرى، فيرى الشاعر الأشياء برؤية تشاؤميةتحول حياة الإنسان من قوة إلى ضعف ومن نعيم إلى بؤس:

ماتتْ تلك التي شكتْ لوعةَ الفراق
وأرادتْ من الله أنْ يبيّنَ الحوبةَ في المفارقين حبيباتهم
والغائبين.
...لم يستجب الله- بالطبع- لأغنيتِها الجميلة،
...لكنَّ المطربةَ غنّت الأغنية
لسبعين عاماً أو تزيد
شاكيةً لوعة الفراقِ المرّ
للملكِ المسكينِ وقاتله،
ثُمَّ للزعيمِ: مُنقِذِ الفقراءِ وقاتله،
ثُمَّ للطاغيةِ: مشعلِ الحروبِ وقاتله.[3]

يكشف الخطاب عن جملة من الأنساق المخاتلة التي يحملها الشاعر، فالغناء فنيبهج النفس ويطربها، إلا أن ثيمته الرئيسة في السياق الحزن والأسى؛ نتيجة للظروف التي عاشها الشاعر

(1) رقصة الحرف الأخيرة: 34.
2إسماعيل، عز الدين، مصدر سابق، ص366-367.
(3) المجموعة الشعرية الحرف والغراب: 61.

ومجتمعه على السواء، فيحمل الخطاب شكوى المحب المظلوم الذي لا يملك وسيلة لردعه، فيوظف الدعاء بوصفة وسيلة ثقافية يحاول فيها تحقيق غاياته، إلا أنها لم تجلُ أو تبدد شكواه، نتيجةهيمنة الظلم واستمراريتهبفعل التلازمية، إذ تشير رؤية الشاعر إلى انعدام الفرح، بعملية تكرار الشكوى واللوعةالتي جعلت الروح خائرة القوى غير قادرة على إثبات فاعليتها ولعل ذلك يعود ل" حس الحزن التاريخي الذي يتميز به الشعر العراقي "[1] فيفصح الغناء عن الظلم و وما أظهره، مسلطاً الضوء على الاستجابة غير المتحققة التي ساهمت في تجلي الحزن بصورة تتسم بالثبات والاستمرارية، وهذا الأمر أبدى انخراط الشاعر بقضايا مجتمعه وتفاعله مع معطيات الواقع المعيش، في ضوء الاحباطات والرؤية النفسية الانفعالية التيتولدت من أنساق ثقافية فاعلة في بنية الوعيالجمعي التيتتسم بالنظرة السوداوية، وهذا الأمر شكل انساقا قابعة في أعماق الشاعر وقرارةنفسه، إذ نجدها هوية مجتمعيةينتمي إليها.

المبحث الثالث: ازدواجية الشخصية في المجتمع العراقي:

مثلت الازدواجية ظاهرة عامة في المجتمعاتإلا أن لها في المجتمعالعراقي نوعا من الخصوصية، إذ نشأت فيه واستساغها وأصبحت مألوفة لديه ومتغلغلة في أعماق نفسه ؛ فهو الأغلبهياما بالمثل العليا والدعوة إليها، إلا أنه في الوقت عينهأكثر انحرافا في واقعه وحياته[2]، ولاسيما أنها شكلت سلوكا ثقافيا يعاد إنتاجه جيلا بعد جيل مُفرِزة خطابا منافقا ومزيفا وعيوبا خطيرة جدا تفشت في المجتمع إلى الحد الذي أمست فيه هوية يحملها الغالبية العظمى من أفراده، فالإنسان عندما يولد يجد نفسه أمام نسيج مجتمعي يزوده بالقيم والتقاليد، وفي مقابل ذلك يقوم بالمجاراة والاستجابة المنساقة لذلك النسق، فيقع تحت نظامين مختلفين من القيم فيستجيب لأحدهما تارة وللآخر تارة أخرى، ونجد الذات تنقد ذلك الأمر:

الكلُّ يتبرقعُ بثيابِ غيره...
إلّاي.
ولما لم أجدْ ما أتبرقعُ به
خرجتُ إلى الشارعِ عارياً،
عارياً تماماً![3]

1 محمود، عباس ثابت، مصدر سابق، ص205.
2 الوردي، علي حسين، مصدر سابق، ص46.
(3) الأعمال الشعرية الكاملة: أديب كمال الدين: مج2: 36.

يحمل الخطاب الشكوى والتذمر من السلوك المجتمعي بأسلوب التعميم الذي يفرض على الفرد ذاتين مختلفتين تفصل بينهما هوّة كبيرة، وهذه النسقيةلم تنمُ من فراغ بل نجد لها إيديولوجيات منغرسة وجذورأفي المجتمع الذي يعيش الماضي السلبي، من ثم تمتد فيه الجمل الثقافية والتهريب النسقي حتى تكون هِوية لذلك المجتمع ؛ لأن العقل البشري يقوم على أبعاد أسستها له الثقافة التي استسقى منها قيمه ومبادئه وعاداته، والعلاقة بينهم علاقة لا شعورية، وأن ما يتم نسيانه لا ينعدم، بل يبقى حيا في (اللاشعور)، فعالم الثقافة لم يسدل الستارة بعد ولو مرة واحدة، ولا نستطيع أن ندعي أننا في عالم آخر غيره، ويندرج ذلك تحت مفهوم الزمن الثقافي الذييجعل المراحل متباعدة زمانيا ومشتركة ثقافيا موعزا ذلك إلىأن زمن العقل العربي هو زمن الثقافة العربية نفسها التي نجد إبطالها مازالوا يتحركون أمامنا على خشبة مسرحها الخالد، وأن تاريخنا عبارة عن اجترار وتكرار وإعادة إنتاج للتاريخ القديم نفسه، وهذا ما أدى إلى الانخراط في صراعات الماضي ومشاكله، بوصفه زمنا راكدا لا يقدم لنا تطور الفكر[1]، في ضوء ذلك نجد الرؤية السلبية للمجتمع قد ولدت شعورا بالوحدة والحسرة وعدم الانسجام نتيجة عدم تقنعها بشخصية أخرى، ليكشف الحيلة الثقافية التي تعكس تعزيز المجتمع وتسويقه لهذا النسق، وأن من يخالف المجموع يتحول إلىساذج غير سوي؛ لأن العري المطلق الذي وصف الشاعر به نفسه يعد خرقا مجتمعيا غير مُحبذٍ ومذموم وينظر إليه نظرة دونية، ومن ثم فإن التورية الثقافية تفصح عن اعتزاز بالذات والنزوع لتطهيرها بشتى الوسائل التي تمثلت بعرض صورة الحقيقة والبراءة التي كان عليها بإزاء مجتمعه، فكسر أفق توقع المتلقي بشعرية عالية تبوح بغصته من الواقع المعيش، منتقدا الازدواجية التي تشربت في المجتمع، ولاسيما أنها لا تستقيم عند الإنسان العاقل، لأنها رؤية مفارقة للجوهر الحقيقي، إلا أنه يبدو في بعض الأحيان مجديا عند الآخر بوصفه نجاة من الشر والذل:

ماتَ كاتبُ الشيزوفرينيا
بعد أنْ بلغَ من العمرِ عِتيّا.
كانَ يتحدّثُ عن الحُبِّ ويمارسُ الكراهية،
كانَ يترجمُ للعُشّاقِ ويرقصُ مع الجلّادين،
كانَ يبكي أمامَ الله
ليرفع نخبَه عالياً للطاغية. [2]

1الجابري، وآخرون (2009): تكوين العقل العربي، ط10، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص39، 40، 41، 44، 45، 46، 47.

(2) المجموعة الشعرية في مرآة الحرف: 20.

يصف الخطاب الازدواجية بوصفها أداة ثقافية تشق طريقها في ثنايا المجتمع، مما جعلها شبه عامة فيه، فيصورها عن بُعد من دون إقحام الذات في صراعها، فتتمظهر في التناقض الذي شكلنسقية لها جذورها الثقافية العميقة في العراق عن طريق المدونة الثقافية القديمة [1]، إذ إن أصلها أمراض اجتماعية فهي ليس من صنع الشاعر، وإنما ثقافة تمتلك دوراً فاعلا في المجتمع، فعلى الرغم من أن ظاهر المجتمع يستنكرها ولا يحبذها، إلا أنه يلجأ إليها في الأعم الأغلب، وفي ضوء ذلك يصور الخطاب مشهدا يحمل النقد والاستهجان لثقافتين متناقضتين تمثلت بالكتابة التي تعد وثيقة تكشف عن الحياة والمجتمع، ولاسيما أساليب الكتاب المتناقضة في الحديث عن الحب وممارسة الكره وتمجيد السلطة من أجل تحقيق غايات وأهداف شخصية، ومرد ذلك إلى تعدد القيم والولاءات وعدم الاكتراث بالأعراف الثقافية، وهذا الأمر يشكل خطرا على المجتمع، نتيجة التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منتجا أنماطا سلوكية غير ثابتة وفاقدة للمصداقية، تقوم على مفارقة جلية، إذ تعكس غايات نفعية متباينة يسعى الآخر فيها إلى المحافظة على صورته عند السلطة من جهة والمجتمع من جهة أخرى، حتى تبدو سلوكياته معتدلة ومقبولة في نظر الآخرين، وذلك الأمر يعود إلى غياب التقدم والنماء في المجتمع، وقيامه على أسس واهنةٍ وهشةٍ تنعكس على البناء الاجتماعي، بفعل فقدان العدالة والظلم والسلطة المتجبرة والحروب التي تعد شرطاً أساسيا في تراجع المجتمعات وبدواتها، لتحقيق المصالح الذاتية وتمحورت حول عدة محاور منها إظهار ثقافتين متناقضتين، إذ نجد بعضهم لا ينتمون ولا يلتزمون سلوكاً واحداً للتغيرات الثقافية التي خلقت بدورها سيكولوجية جديدة تتعدد فيها الانتماءات والصور حتى تنعدم الهوية فيها:

يتداخلُ السيركُ مع الجمهور
فلا تستطيع أنْ تعرفَ على الإطلاق
مَن هو المُهرّجُ ومَن هو المُشاهد!
مَن هو المُروِّضُ ومَن هو القرد![2]

إن فعلالتداخل الثقافي الذي يدور حول الخطاب يحيلنا على التشابه والالتباس والاختلاط، لينتج لنا التأرجح بين الانتماء إلى جماعة السيرك ولا انتماء إلى جماعة الجمهور، هذا التردد بين الهويتين لا يعني الانتماء التام لكلا الطرفين بل التذبذبفي الانتماء بين هذا وذاك [3]، فالخطاب يثير

1 صفوت، أحمد زكي (1933): جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ط1، مطبعة مصطفى الباني الحلبي، ص276.

(2) المجموعة الشعرية حرف من الماء: 115.

3 لعيبي، محمد قاسم (2011): الرواية العراقية وسردية الاختلاف قراءة لوعي الذات والعلاقة مع الآخر، بغداد: دار الكتب والوثائق، ص74.

التساؤل عن أسباب التأرجحوفرضية (اللاشعور) التي يصعب الدفاع عنها، بفعل هشاشة الهوية التي تشكل صورة مشوهةأنتجها الخوض في معارك الوعي ومصادرة الحرية التي ترتضيها الهوية وينتجها البناء المعرفي الذي يستندإلى مكوناتثقافية من صميم الواقع، إذ إنه تنميط ثقافي يفرضه الآخر لمجابهة الواقع المتشابك وما يشعر به من نكوص، ليفصح موقف شعري ونفسية متصدعة عن اضطرب كبير يجعله يمتلك هويتين وشخصيتينتقومان على التناشز والتنافر وتغليب السلوك المتناقض، فقد تقتضي مصلحته تارة أن يتحدث عن المثل العلياوينتقد من يخالفها، وأخربالتناقض بين الأفكار بمعنى أن نجد السلوك الذي يتصرف به الفرد يتناقض مع الفكرة والقيمة التي يحملها، فيملك هويتين لكل واحدة أسلوبها الخاص، وعلى أثر ذلك يكشف الخطاب عن رسالة اجتماعية ثقافية تواصلية المراد منها التنبيه على الضمير الثقافي المتشعرن والمتلبس بالنسق وما يحمل من عيوب في ظل توفير الأمان في الابتعاد عن الرصد والمراقبة لهذا النسق الذي يمارس فعله خفية بعيدا عن الضوء، ونجد الذات أقل تفاعلاً وحرارة من الخطاب السابق على الرغم من إدراك الذات لانحطاط الواقع ومن ثم أصبحت هوية متجذرة عند كثير من أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه الشاعر.

الخاتمة:

اثبت البحث أن الأنساق تمثلت في الهوية المجتمعية بأنساق مختلفة، إذ شكل الوطن للشاعر نسقا مجتمعيا قاراً، إذ هيمن على شعره، ما جعله يتغنى به، فأصبح مركزاً يقابله الآخر الهامش، فكان الانتماء الذي يربطه انتماء كليا، فالوطن الحياة وديمومتها وعطائها، وبهذا شكل نسقاً مجتمعياً متميزاً عند الشاعر، يعود إلى شدة الانتماء الذي هيمن على الذات والضغط النفسي الناتج من الغربة، وقد انعكس على نسق آخر يمثل انتماءً جزئيا تشكل في المدينة وأثرها في صناعة الهوية، ونجد موضوعة الحزن التي أشار إليها العديد من الباحثين على أنها نسق عراقي خاص ومتميز، ساهمت في تبلوره مجموعة من الخصائص التي أثرت على المجتمع وتكوينه ومنها الحرب واليأس والظلم، فضلا عن الازدواجية التي برزت بوصفها أداة ثقافية تغلغلت في المجتمع العراق بشكل خاص، فظهرت من خلال الذات وتصوراتها حول المجتمع حتى عولجت على أنها نسقا ثقافيا وجد حضوره بشكل كبير، فشكل ذلك الأمر سلوكا ثقافيا يعاد صياغته جيلا بعد جيل، وقد صور الشاعر بفعل إنتاجه الثقافي ذلك البعد الثقافي الازدواجي.

قائمة المصادر والمراجع:

- علي، مختار (1995): المدينة في الشعر العربي المعاصر، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- أدونيس وآخرون (2012): الكتابة والمنفى، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- إسماعيل، عز الدين (1966): الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره، ط 3، دار الفكر العربي.
- إنكرام، وآخرون (2016): الدراسات الثقافية مدخل تطبيقي، ط1، دار بغداد.
- البخاتي، حكمت (2013): التشيع في الكوفة النشأة والهوية والتحول وأثر واقعة الطف، مج دراسات إسلامية معاصرة، ع:8.
- بينيت طوني، وآخرون (2010): مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- التميمي، وآخرون (2010): تحولات المدينة في الشعر العراقي الحديث، ط1، دمشق: دار الرائي للترجمة والنشر.
- الجابري، وآخرون (2009): تكوين العقل العربي، ط10، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجزائري، محمد (1974): ويكون التجاوز دراسات نقدية معاصرة في الشعر العراقي الحديث، منشورات وزارة الأعلام الجمهورية العراقية.
- ملكة وآخرون: ثنائية اليأس والأمل في شعر المتنبي، جامعة الكوفة، كلية التربية(بحث).
- حور، محمد (2005): الهوية العربية في الشعر المعاصر من وهم الحقيقة... إلى حقيقة الوهم، ط1، سلسلة ثقافية تصدرها وزارة الثقافة.
- نادية وآخرون، دوائر الانتماء وتأصيل الهوية، ط1، القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم.
- سعيد، إدوارد (2003): الإلهة التي تفشل دائما، تحقيق: حسام الدين خضور، التكوين للطباعة للنشر.
- سلمان، وآخرون (2004): الشمس في الشعر الجاهلي، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية.
- سليم، فاروق أحمد (1998): الانتماء في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- صفوت، أحمد زكي (1933): جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ط1، مطبعة مصطفى الباني الحلبي.
- صن أماريتا (2008): الهوية والعنف ووهم المصير الحتمي، تحقيق: سحر توفيق، ط1، الكويت: عالم المعرفة.
- العاني، وآخرون (2005): المعذب في الشعر العراقي الحديث: 1958– 2000، جامعة بغداد.

- عايش، شيماء نزار (2016): من بنيات المماثلة إلى أنماط المغايرة دراسة ثقافية لأنساق البداوة والحضارة في الشعر العربي، ط1، دمشق.
- عائشة، بن كرامة (2015): ظاهرة الحزن في شعر بدر شاكر السياب، مجلة الجزائر، ج3، ع7.
- عباس، إحسان (1990): اتجاهات الشعر العربي المعاصر، الكويت: عالم المعرفة.
- العبيكان، وآخرون (2006): فكر الانتماء فيزمن العولمة وقفات مع المفهومات والتطبيقات، ط1، الرياض.
- رشيد، أمل محسن (2006): المكان في الشعر الأندلسي عصر الملوك والطوائف جامعة أم القرى.
- شرار، رائد حاكم (2017): الهوية في شعر الجيل التسعينيات لعراقي، جامعة بابل كلية التربيةللعلوم الإنسانية.
- لعيبي، محمد قاسم (2011): الرواية العراقية وسردية الاختلاف قراءة لوعي الذات والعلاقة مع الآخر، بغداد: دار الكتب والوثائق.
- لومان، نيكلاس (2010): مدخل إلى نظرية الأنساق الثقافية: 24. مدخل إلى نظرية الأنساق، تحقيق: يوسف فهمي حجازي، ط1، المانيا: دار الجمل.
- مجموعة مؤلفين (2013): اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ط1، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- محمود، عباس ثابت (2010): الشعر العراقي الحديث 1945–1980 في معايير النقد الأكاديمي العربي، العراق.
- المرازيق، أحمد جمال (2009): جماليات النقد الثقافي نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- المسعودي، كريم: الوطن الدلالة والبناء في شعر السياب، ط1، دمشق: دار صفحات للنشر.
- مغنية، حبيب يوسف (2010): في الأدب الحديث والثقافة، ط1، بيروت: دار الهلال.
- مهدي، سامي (1994): الموجه الصاخبة شعر الستينات في العراق، العراق: دار الشؤون الثقافية.
- ميشكشيللي، أليكس (1993): الهوية، تحقيق: علي وطفة، ط1، دمشق: دار الوسيم.
- الوردي، علي حسين (2001): شخصية الفرد العراقي بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع، ط2، لندن: منشورات دار ليلى.